العرب الثقافي
الأحد 2020/01/12
السنة 42 العدد 11584

حب الوطن لا يعني «بلدنا أولا»

التاريخ يقول إن المثقف يملك البوصلة فإن ضاعت ضاع الفرد وتاهت الجماعة

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي مقيم في لندن

لا ضير أن نحب أوطاننا. هذا هو الطبيعي. الوطن هو مرحلة التأسيس العاطفي والنفسي. إسأل الفقير والثري، وسيتغنيان بالوطن. إسأل المدلل والمضطهد وسيجتمعان على حب البلد. إسأل المقيم والمهاجر. إسأل البسيط والمثقف، الشاب والشيخ، المرأة والرجل. لعل هذا الحب من أكثر الإجماعات التي من الصعب أن يجادل بها أحد. حتى الخائن سيبرر خيانته بأنه ما فعل ذلك إلا حبا بوطنه. الوطنية شيء من الصعب الاختلاف عليه.

لعل واحدا من أهم الدروس التي يحفظها المثقف ألاّ يكون شوفينيا وأن يكون الراصد لظواهر المغالاة. إذا انحرفت بوصلة السياسة والإعلام والمجتمع، فإن على عاتق المثقف يقع دور تصحيح الوجهة

ولكن ثمة حدود للوطنية. هذه الحدود من الصعب تعريفها. هل تقف عن حدود البلد الجار؟ هل تقف عند الحدود النفسية التي تتشكل من التربية والعادات والتقاليد الخاصة في كل بلد؟ هل تتوقف عند مصالح كل بلد؟

من السهل أن يتحوّل حب الوطن إلى المغالاة ونصبح في خانة الشوفينيين. قد لا نعلن هذا أو نعلنه. لكن المغالاة بالحس الوطني، مثل كل شيء يرتبط بالمغالاة، قد تصبح خطرا على صاحبها وعلى شعبها.

عاصرت مراحل من هذه المغالاة أو شهدتها في بلدان مختلفة أو سمعتها من سياسيين ومثقفين وعامة. في أغلب الأحيان شهدت نهايات غير سعيدة لتلك المغالاة.

خذ مثلا حملة ساذجة أطلقتها وزارة التجارة البريطانية في بداية التسعينات. تذهب إلى مخزن الأجهزة الكهربائية، فترى الثلاجة المصنعة بريطانياً عليها ملصق بعلم المملكة المتحدة وكتابة تقول "اشتريها بريطانية!" موّلت الوزارة هذه الملصقات وروّجت لها بحملة إعلانات في التلفزيون. ما كانت الإنترنت منتشرة مثل اليوم، وإلا لكنا غرقنا إعلانات تنط من على الشاشات.

ماذا كانت النتيجة؟ قبل نهاية التسعينات، سادت الأجهزة الكهربائية غير البريطانية وبادت "البريطانية". الأجهزة الكهربائية المنزلية اليوم صينية أو كورية. ثمة جيل بريطاني لا يعرف أن بلاده كانت تنتج ثلاجات. ارتدّت الحملة لأنها لم تكن واقعية. وسبب عدم واقعيتها أنها ما كانت تراعي فكرة الإنتاج المعولم، وليس لأن البريطانيين أقل وطنية من الصينيين أو الكوريين. السياسيون، ومعهم من خطط الحملة من أخصائيي التسويق، بل والمثقفين، أخذتهم العزة بإثم المغالاة. قدموا الأحاسيس على الواقع، وراهنوا عليها، ليصطدموا بمعايير مختلفة لدى الناس: السعر والنوعية والدعاية التي تروّج لها بريطانيا نفسها عن أهمية العولمة في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

قبل سنوات أيضا تبنت دول عربية شعارات من شاكلة "بلدنا أولا". انتشرت الشعارات بدوافع سياسية واقتصادية. تتجول في هذه العاصمة أو تلك، فتحيط بك الملصقات والجداريات.. "أولا".. "أولا". تحمس السياسيون والإعلاميون وبعض المثقفين للأمر. تحدثوا عنه وكتبوا وصفقوا وروّجوا. تحمس بعض من مواطني الشعوب. ثم اعتادوا على شكل الصور والملصقات والكلمات. وبردت فورة المغالاة من دون أن تحقق الكثير محليا. لكنها نبهت آخرين للقضية.

لنأخذ مثلا بلدا صغيرا محدود الإمكانيات البشرية والمالية والاقتصادية يقول "بلدنا أولا". ربما تكون دوافعه مختلطة ويريد أن يحمي نفسه بحقنة مغالاة. مثل هذه البلدان تعيش من خلال ما تقدمه من خدمات وقوى بشرية للآخرين، وما تستقبله من الآخرين من دعم ومعونات. يأتي الآخرون ويتجولون في البلد أو يشاهدون على شاشاتهم أو يقرأون في صحفهم عن البلد الذي يستقبلون مواطنيه ويرسلون له الدعم المالي يقول "بلدنا أولا". رد الفعل الطبيعي هو "وبلدنا أيضا أولا". لسان حالهم سيقول "تعلمنا منكم الدرس" و"مواطننا أولا" و"اقتصادنا أولا" و"أمننا أولا" "وفلوسنا لنا أولا".

هذا ما حدث مع عدد من دول المنطقة. دول كانت تعيش بحال معقول وقعت في شرك المغالاة بالحس الوطني أو بالحس الذاتي الشخصي (مواطننا عملة نادرة في تلك الأرض القريبة)، فانتهت وهي ترى "صحوة" الآخرين لهذا المنطق.

لوحة للرسام محمد عمران

من السهل أن يتحوّل حب الوطن إلى المغالاة ونصبح في خانة الشوفينيين. قد لا نعلن هذا أو نعلنه. لكن المغالاة بالحس الوطني، مثل كل شيء يرتبط بالمغالاة، قد تصبح خطرا على صاحبها وعلى شعبها

صار عليها الآن أن تدفع ثمنا غاليا لحملة إعلانات روّجت لسلعة بلا معالم ثابتة أو غير واقعية أو يمكن أن تستثير الآخر بدلا من أن تستحث ابن البلد. لدينا أمثلة كثيرة وملموسة، ولعل الأخطر أن نتائجها السلبية أكثر من محسوسة.

السياسيون بياعو كلام. الإعلاميون هم المسؤولون عن تسويق بضاعة السياسيين وتغليفها وتوصيلها. ولكن ماذا عن المثقفين؟

لعل واحدا من أهم الدروس التي يحفظها المثقف ألاّ يكون شوفينيا وأن يكون الراصد لظواهر المغالاة. إذا انحرفت بوصلة السياسة والإعلام والمجتمع، فإن على عاتق المثقف يقع دور تصحيح الوجهة. المثقف الذي يقاد شعبويا أو بإغراءات السياسة والشهرة، عليه أن يجد مهنة أخرى. فثمة مسؤولية أخلاقية أمام منع مثل هذه الظواهر والتحذير من مخاطرها. ولعل التنبيه ليس رجما بالغيب، ولكنه محصلة لقراءات تاريخية واستذكار لتجارب الشعوب. لم تهدم أوروبا في الحرب العالمية الثانية إلا لأن مثقفيها لم يؤدوا دورهم. نذكّر مثقفينا بهذا دوما.

لوحة للرسام محمد عمران

المثقف السعودي بين الترفيه والثقافة

زكي الصدير
شاعر وصحافي سعودي

لا يزال المثقف السعودي يشعر بأنه يعيش على هامش مشهد التحول الوطني السعودي 2030، من حيث الالتفات له وتكريمه وإعطائه حقه الذي اعترفت له به مؤسسات وهيئات وجامعات خارج السعودية بينما أُهملَ، ولم يلتفت له أحد في الداخل، الأمر الذي جعل بعض المثقفين يعاتبون ويستجدون المؤسسات الثقافية والترفيهية التي يفترض أن يحاكمها ويسائلها وينتقدها بدل أن يستجديها التكريم والعناية.

أثار الروائي السعودي عبده خال الجدل برأيه الذي أشار فيه إلى القوى الثقافية التي تزخر بها المملكة وضرورة التفات هيئة الترفيه لها، حين قال "إن التفت معالي المستشار تركي آل الشيخ للفنانين والرياضيين كقوى ناعمة تكرم من قبل الدولة من خلال هيئة الترفيه، فثمة قوى ثقافية فاخرة تزخر بها بلدنا، ولم يلتفت إليها أحد. إن ما يحدث لهو قسمة ضيزى. العقل ميزان راجح للقوى".

وتساءل البعض حول مدى علاقة الترفيه بالمثقفين، وأشاروا إلى أن المسؤول عن مثل هذا التكريم يجب أن تكون وزارة الثقافة دون غيرها، وطرح بعض المهتمين تساؤلا حول ذلك ليرد عليهم بصورة متهكمة الكاتب والشاعر محمد زايد الألمعي بالقول "مثل علاقة الترفيه بالرياضيين"، في إشارة منه إلى أن هيئة الترفيه كرّمت الرياضيين الذين كان يفترض أن يكرموا من الهيئة العامة للرياضة وليس الترفيه.

وفي الشأن نفسه أكد الكاتب محمد الدخيل على أن المثقف ليست وظيفة. فالمثقف عليه أن يكون مثل غيره؛ يعمل ويجد، ويضيف إلى ذلك اهتمامه بالإبداع.

وفي حين يرى الشاعر علي الدميني أن هذه المطالبة يجب أن توجه إلى وزير الثقافة لا لرئيس الترفيه أوضحت الشاعرة هدى الدغفق بأن الملوم هو وزارة الثقافة التي انشغلت بتعزيز دور المملكة وتحسين صورتها بالخارج، وقلصت من اهتمامها بالمواطن المفكر.

كما أن الوزارة حصرت اهتماماتها في فئة قليلة من أهل الثقافة وجعلتهم المحافل، واكتفت بتلك الرموز بينما غضت الطرف عن البقية الكثيرة. تقول الدغفق "قبل أيام، كنت وإخوتي نطالع مع أمي مشاهد تكريم اللاعب ياسر القحطاني وتساءلت كثيرا عن انعدام الاهتمام بالثقافة العامة والفكر إلى جانب كل هذا الزخم من الاهتمام بالفن والرياضة، ليس المطلوب التكريم وحسب، بل أكثر من ذلك".

وتضيف "بدل مطالبة هيئة الترفيه، علينا أن نتوجه بمطالباتنا نحو وزارة الثقافة، لأنك حين تتوجه نحو هيئة لا تنظر إلى الثقافة والفكر بعين التقدير والاحترام فستتلقى التهكم والسخرية وقلة الاحترام؛ كما يبدو من بعض الردود على رأي عبده خال".

من جانبه كتب الروائي سعيد الأحمد مخاطباً عبده خال، "المثقفون، على مدى عقود -يا صديقي- لم يقدموا للأجيال سوى التنظير الحزين والتشكي. الترفيه نجح في عامين في تغيير واقع البلد. أعتقد ذلك، بعد كل هذي الشيبات على صدغي".

وتحت عنوان "سجائر عبده خال" كتب الكاتب السعودي المهتم بالفلسفة شايع الوقيان: "كتب الأديب الكبير عبده خال تغريدة موجهة لتركي آل الشيخ، طالب فيها معالي المستشار أن يلتفتَ إلى أهل الفكر والأدب كما التفت إلى أهل الرياضة والمغنى.

وأشار خال إلى أن المثقفين يتعرضون لقسمة ضيزى. وأنا أقف صفا لصف، وكتفا لكتف، وجيبا لجيب مع عبده خال. لقد أزرى بنا الدهر وأصبحنا عاجزين حتى عن شراء سجائر صحية أو أقل ضررا مما قامت به وزارة الصحة! إن مئة ألف ريال تصرف في الثانية على ملاكم أو مصارع أو مغن أو مغنية تشتم النساء السعوديات كفيلة بأن تضمن للأديب والمفكر سكنا محترما وسجائر نظيفة! اللهم حبب تركي آل الشيخ في المثقفين. آمين".

وذهب بعض المتابعين بأن المثقفين السعوديين وعلى رأسهم عبده خال يستجدي التكريم من هيئة الترفيه، غير أن خال -وفي تنويه لاحق- أوضح قائلا "إني لستُ المقصود بالكلام ولكن لدينا قامات ثقافية عظيمة تكرم من قبل دول عربية ومن الأولى أن تكرم في بلادها".

إن مئة ألف ريال تصرف في الثانية على ملاكم أو مصارع أو مغن أو مغنية تشتم النساء السعوديات كفيلة بأن تضمن للأديب والمفكر سكنا محترما وسجائر نظيفة

وفي وجهة نظر متباينة ومختلفة عن سياق المناقشات الدائرة رأى الكاتب عبدالرحمن حداد أنه من صالح الحركة الثقافية السعودية أن تكون بعيدة عن متناول السلطة، فالمثقف حر بصفته، على الأقل حتى يكون حياديا في قلمه، لذلك -والكلام ما يزال لحداد- إذا ما أغرقت السلطة المثقف بالتكريمات، سيتحول الكاتب إلى تابع، وسيفقد قدرته حتى على كتابة نص تجاه المسؤول، كل ذلك في سبيل أن يشمله التكريم.

لوحة الفنان خالد تكريتي